بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ①﴾

قد تعرضنا من قبل لفواتح السور[١] ؛ من أول سورة البقرة، وسورة آل عمران، وقلنا: إن فواتح بعض من سور القرآن تبدأ بحروف مُقطَّعة ؛

● سورة يوسف سورة مكية، نزلت بمكة المكرمة. قال السيوطي في «الإتقان في علوم القرآن» (١/ ٤٠): «استثنى منها ثلاث آيات من أولها، حكاه أبو حيان، وهو واه جداً لا يلتفت إليه». عدد آياتها ١١١ آية. وهي سورة جامعة «لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين، والملائكة والشياطين، والجن والإنس، والأنعام والطير، وسِيَر الملوك والممالك، والتجار والعلماء والجهال، والرجال والنساء، وحيلهن ومكرهن، وفيها ذكر التوحيد والفقه، والسِّيَر وتعبير الرؤيا، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش، وجمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا» ذكره القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٤٤١).

(١) قال الإمام السيوطي : «اعلم أن الله افتتح سور القرآن بعشرة أنواع من الكلام:

الأول : الثناء عليه تعالى، والثناء قسمان. الأول: التحميد في خمس سور، وتبارك في سورتين، والثاني: التسبيح في سبع سور.

الثاني : حروف التهجي في تسع وعشرين سورة.

الثالث : النداء في عشر سور: خمس بنداء الرسول ﷺ، وخمس بنداء الأمة.

الرابع : الجمل الخبرية، نحو: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ .. ①﴾ [الأنفال]، وذلك في ثلاث وعشرين سورة.

الخامس: القسم ، في خمس عشرة سورة.

السادس : الشرط ، في سبع سور مثل : ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ①﴾ [الواقعة].

السابع : الأمر، في ست سور، نحو : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الإخلاص]

الثامن : الاستفهام، في ست سور، نحو: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ①﴾ [النبأ]

التاسع : الدعاء، في ثلاث سور: الهمزة، المطففين، المسد.

العاشر : التعليل ، في سورة قريش . انتهى باختصار [الإتقان في علوم القرآن ٣/ ٣١٦].

ننطقها ونحن نقرؤها بأسماء الحروف ، لا بمسميات الحروف.

فإن لكل حرف اسماً ومُسمًّى ، واسم الحرف يعرفه الخاصة الذين يعرفون القراءة والكتابة ، أما العامة الذين لا يعرفون القراءة أو الكتابة ؛ فهم يتكلمون بمسميات الحروف ، ولا يعرفون أسماءها.

فإن الأمى إذا سُئل أن يتهجى أىَّ كلمة ينطقها ، وأن يفصل حروفها نطقاً ؛ لما عرف ، وسبب ذلك أنه لم يتعلم القراءة والكتابة ، أما المتعلم فهو يعرف أسماء الحروف ومُسمَّياتها.

ونحن نعلم أن القرآن قد نزل مسموعاً ، ولذلك أقول: إياك أن تقرأ كتاب الله إلا أن تكون قد سمعته أولاً ؛ فإنك إذا قرأته قبل أن تسمعه فسيستوى عندك حين تقرأ فى أول سورة البقرة : ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [البقرة]

مثلما تقرأ فى أول سورة الشرح : ﴿أَلَمْ .. ۝١﴾ [الشرح]

أما حين تسمع القرآن فأنت تقرأ أول سورة البقرة كما سمعها رسول الله ﷺ من جبريل[1] - عليه السلام - « ألف لام ميم » ، وتقرأ أول سورة الشرح « ألم ».

وأقول ذلك لأن القرآن - كما نعلم - ليس كأى كتاب تُقبِل عليه لتقرأه من غير سماع ، لا. بل هو كتاب تقرؤه بعد أن تسمعه وتصحح

(١) إن السماع قبل القراءة ضرورة من ضرورات سلامة النطق ، وطهارة الكلمة ؛ لذلك يقول الحق : ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۝١٥١﴾ [البقرة] فالتلاوة ابتداء ، والتزكية ارتقاء ، والتعليم صفاء ، ووضع الشىء فى مكانه ووضع للمقال فى مقامه ، وفى الغيب علم يتوالى ، وفى التوالى إعجاب ، والإعجاب توحيد بنزاهة ، وتفريد بطهارة ، وتجريد بإخلاص.

قراءتك على قارىء ؛ لتعرف كيف تنطق كل قَوْل كريم ، ثم من بعد ذلك لك أن تقرأ بعد أن تعرفتَ على كيفية القراءة ؛ لأن كل حرف فى الكتاب الكريم موضوع بميزان[1] وبقدر.

ونحن نعلم أيضاً أن آيات القرآن منها آياتٌ مُحْكمات وأُخَر مُتَشابهات[2] . والآيات المُحْكماتُ تضم الأحكام التى عليك أن تفعلها لتُثاب عليها ، وإنْ لم تفعلها تُعاقب ، وكل ما فى الآيات المُحْكمات واضح.

أما الآيات المُتَشابهات إنما جاءت متشابهة[3] لاختلاف الإدراك من إنسان لآخر ، ومن مرحلة عُمرية لأخرى ، ومن مجتمع لآخر ، والإدراكات لها وسائل يتشابه فيها الناس ، مثل : العين ، والأذن ، والأنف ، واللسان ، واليد.

ووسائل الإدراك هذه ؛ لها قوانين تحكمها:

(١) قال ابن الجزرى فى كتابه «النشر فى القراءات العشر» (١/ ٢١٠) : «لاشك أن هذه الأمة كما هم متعبدون بفهم معانى القرآن وإقامة حدوده متعبدون بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه على الصفة المتلقاة من أئمة القراءة المتصلة بالحضرة النبوية الأفصحية العربية التى لا تجوز مخالفتها ولا العدول عنها إلى غيرها».

(٢) يقول تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ۝٧﴾ [آل عمران]

(٣) معنى المتشابه هنا أى: ما استأثر الله بعلمه، وخفى معناه على الناس، أو هو ما احتمل أوجُهاً من حيث المعنى والتأويل. وهذا هو معنى الآية السابعة من سورة آل عمران، أما قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا .. ۝٢٣﴾ [الزمر] فمعناه: أنه يشبه بعضه بعضاً فى الصحة، وعدم التناقض وتأييد بعضه لبعض. انظر «فتح الرحمن بكشف مايلتبس فى القرآن» لأبى يحيى الأنصارى (ص٦٠).

فَعينُك يحكمها قانون إبصارك ، الذى يمتد إلى أن تلتقى خطوط الأشعة عند بؤرة تمتنع رؤيتُك عندها ؛ ولذلك تصغُر الأشياء تدريجياً كلما ابتعدت عنها إلى أن تتلاشى من حدود رؤيتك.

وصوتُك له قانون ؛ تحكمه ذبذبات الهواء التى تصل إلى أدوات السمع داخل أذنك.

وكذلك الشَّمُّ له حدود ؛ لأنك لا تستطيع شَمَّ وردة موجودة فى بلد بعيدة.

وكذلك العقل البشرى له حدود يُدرك بها ، وقد علم الله كيف يدرك الإنسان الأمور ، فلم يمنع تأمل وردة جميلة ، لكنه أمر بغضِّ البصر[1] عند رؤية أى امرأة.

وهكذا يُحدِّد لكَ الحق الحلال الذى تراه ، ويُحدِّد لك الحرام الذى يجب أن تمتنع عن رؤيته . وكذلك فى العقل ؛ قد يفهم أمراً وقد لا يفهم أمراً آخر ، وعدم فَهْمك لذلك الأمر هو لَوْن من الفهم أيضاً ، وإنْ تساءلتَ كيف ؟

انظر إلى موقف تلميذ فى الإعدادية ؛ وجاء له أستاذه بتمرين

(١) غض بصره وغض من بصره، يغض غضاً: خفضه ولم يرفعه ولم يحدِّقه فيما أمامه، أو كفَّ بَصره ولم ينظره. وفى غضِّ البصر قال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ..﴿٣٠﴾﴾ [النور]، وقال : ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ..﴿٣١﴾﴾ [النور] . ومنه غضُّ صوته: خفضه، قال تعالى: ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ..﴿١٩﴾﴾ [لقمان][القاموس القويم : ٢/٥٦].

هندسى[1] مما يدرسه طلبة الجامعة ؛ هنا سيقول التلميذ الذكى لأستاذه : نحن لم نأخذ الأسس اللازمة لحلِّ مثل هذا التمرين الهندسى ، هذا القول يعنى أن التلميذ قد فهم حدوده.

وهكذا يُعلِّمنا الله الأدب فى استخدام وسائل الإدراك ؛ فهناك أمر لك أن تفهمه ؛ وهناك أمر تسمعه من ربك وتطيعه ، وليس لك أن تفهمه قبل تنفيذه ؛ لأنه فوق مستوى إدراكك.

ودائماً أقول هذا المثل - ولله المثل الأعلى - إنك حين تنزل فى فندق كبير، تجد أن لكل غرفة مفتاحاً خاصاً بها ، لا يفتح أى غرفة أخرى ، وفى كل دَوْر من أدوار الفندق يوجد مفتاح يصلح لفتْح كل الأدوار ، ولا يفهم هذا الأمر إلا المتخصص فى تصميم مثل تلك المفاتيح.

فما بالنا بكتاب الله تعالى ، وهو الكتاب الجامع فى تصميم مثل تلك المفاتيح.

فما بالنا بكتاب الله - تعالى - وهو الكتاب الجامع الذى يقول فيه الحق - تبارك وتعالى:

﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ[2] هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ[3] وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي

(١) أصل هذه الكلمة الهنداز، وهى كلمة فارسية أصلها أنداز فصيرت الزاى سيناً، لأنه ليس فى شىء من كلام العرب زاى بعد الدال، والاسم الهندسة. والمهندز: هو الذى يُقدِّر مجارى القُنِىِّ والأبنية. [انظر: لسان العرب - مادتى : هندز ، هندس].

(٢) أحكم الأمر: اتقنه، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ .. (٥٢) ﴾ [الحج] أى: يبينها ويجعلها متقنة مقنعة محكمة. وآيات محكمة: متقنة مقنعة واضحة. وقيل: محكمة غير منسوخة أو محكمة غير متشابهة فلا تحتاج إلى تأويل. وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ ..(٢٠) ﴾ [محمد] أى: متقنة. [القاموس القويم: ١/١٦٦].

(٣) أم الكتاب: أصله، يُرَدُّ إليها كل ما عداها مما يحتمل أوجهاً كثيرة. قال فى التهذيب: أمُّ الكتاب كل آية محكمة من آيات الشرائع والأحكام والفرائض. [نقله ابن منظور فى اللسان - مادة: أمم] وأم الكتاب: فاتحته؛ لأنه يبتدأ بها فى كل صلاة. [اللسان].

قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ [(١)] فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ[(٢)] الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٧)﴾ [آل عمران]

إذن : فهذا المتشابه يعتبره أهل الزيغ فرصة لتحقيق مآربهم[(٣)]، وهو إبطال الدين بأيٍّ وسيلة وبأى طريقة ، ويحاولون ممارسة التكبر على كتاب الله.

ولهؤلاء نقول: لقد أراد الله أن يكون بعضٌ من سور الكتاب الكريم مُبْتدئة بحروف تُنطق بأسمائها لا بمُسمَّياتها.

وقد أرادها الحق ـ سبحانه ـ كذلك ليختبر العقول ؛ فكما أطلق ـ سبحانه ـ للعقل البشرى التفكير فى أمور كثيرة ؛ فهناك بعض من الأمور يخيب فيها التفكير ، فلا يستطيع العقل إدراك الأشياء التى تفوق حدود عقله.

---

(١) زاغ يزيغ زَيْغاً وزيغاناً: مال عن القصد. وأزاغه: أماله وصرفه عن القصد : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ .. (٥)﴾ [الصف] أى: فلما انحرفوا عن الحق واختاروا طريق الباطل، صرف الله قلوبهم وتركهم وما اختاروه فلم يجبرهم على الإيمان. [القاموس القويم: ١/٢٩٣، ٢٩٤].

(٢) بغى الشىء: طلبه، وابتغاه: طلبه، قال تعالى : ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ..(٤٧)﴾ [التوبة] ، أى: يطلبونها لكم. وقال تعالى: ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا .. (٢٩)﴾ [الفتح] أى: يطلبون فضلاً. وقوله: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ .. (٤٨)﴾ [التوبة] أى: طلبوها وسعَوْا فى بثّها ونَشْرها. [القاموس القويم: ١/٧٦].

(٣) المآرب والأرَب والإرْب : الحاجة والغرض. يقول تعالى عن عصا موسى أن موسى عليه السلام قال عنها: ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨)﴾ [طه] أى: حاجات وأغراض كثيرة أخرى كاتقاء ضرر أو غير ذلك. [القاموس القويم : ١/١٧] بتصرف.

والحق - سبحانه وتعالى - يصنع للإنسان ابتلاءات في وسائل إدراكه؛ وجعل لكل وسيلة إدراك حدوداً ، وشاء أن يأتي بالمتشابه ليختبر الإنسان ، ويرى : ماذا يفعل المؤمن ؟

وقوله الحق - سبحانه:

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ[1] إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ[2] فِي الْعِلْمِ..(٧)﴾ [آل عمران]

قد يُفْهم منه أنه عطف ؛ بمعنى أنّ الراسخين في العلم يعلمون تأويله ؛ وبالتالي سيُعلِّمون الناس ما ينتهون إليه من علم بالتأويل. ولكن تأويل الراسخين في العلم هو قولهم:

﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا .. (٧)﴾ [آل عمران]

إذن : فنهاية تأويلهم : هو من عند ربنا ، وقد آمنا به.

وجاء لنا قوله ﷺ ليَحُل لنا إشكال المُتَشابَه:

«ما تشابه منه فآمنوا به»[3].

---

(١) تأويل الكلام: تفسيره وتبيين المراد منه. قال ابن منظور في [لسان العرب - مادة: أول]: «التأويل والمعنى والتفسير واحد. قال أبو عبيد في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ .. (٧)﴾ [آل عمران]: التأويل المرجع والمصير مأخوذ من آل يؤول إلى كذا، أي: صار إليه قال الجوهري: التأويل تفسير ما يؤول إليه الشيء.

(٢) رسخ يَرْسَخ رُسُوخاً : ثبت فهو راسخ أي : ثابت. الراسخون في العلم: المتمكّنون فيه. [القاموس القويم: ١/٢٦٤].

(٣) تمام هذا الحديث : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه منه فآمنوا به » عزاه ابن كثير في تفسيره (١/٣٤٦) لابن مردويه من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.

لأن المتشابه من ابتلاءات الإيمان.

والمثل الذى أضربه هنا هو أمره ﷺ لنا أن نستلم[١] الحجر الأسود وأن نُقبِّله[٢]، وأن نَرْجُم الحجر[٣] الذى يمثل إبليس ، وكلاهما حجر، لكننا نمتثل بالإيمان لما أمرنا به ﷺ[٤] .

وأنت لو أقبلتَ على كل أمر بحُكْم عقلك ، وأردتَ أن تعرف الحكمة وراء كل أمر ، لَعبدْتَ عقلك ، والحق ـ سبحانه ـ يريد أن تُقبِل على الأمور بحُكْمه هو ـ سبحانه.

وأنت إن قلتَ لواحد: إن الخمر تهرى الكبد ، ووضعت على كبده جهاز الموجات فوق الصوتية الذى يكشف صورة الكبد ، ثم ناولتَ الرجل كأس خمر ؛ فرأى ما يفعله كأس الخمر فى الكبد ، وراعَهُ[٥] ذلك ؛ فقال : والله لن أشربها أبداً.

---

(١) قال الليث : استلام الحجر تناوله باليد وبالقُبْلة ومَسْحه بالكف. وقال الجوهرى: استلم الحجر لمسه إما بالقُبْلة أو باليد. [نقله ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة: سلم].

(٢) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: استقبل رسول الله ﷺ الحجر فاستلمه، ثم وضع شفتيه عليه يبكى طويلاً، فالتفت فإذا هو بعمر يبكى، فقال: « ياعمر، ههنا تُسْكب العبرات». أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٩٤٥) والحاكم فى مستدركه (١/٤٥٤) كلاهما من طريق محمد بن عون الخراسانى قال البوصيرى فى الزوائد: ضعفه ابن معين وأبو حاتم وغيرهما، قلت: قد صححه الحاكم وأقره الذهبى على تصحيحه.

(٣) وهو ما يُعرف برمى الجمرات فى مِنًى فى أيام الحج، وهى ثلاث جمرات: الصغرى وهى القريبة من مسجد الخيف، ثم الجمرة الوسطى وبينهما ١٥٥متراً، ثم الجمرة الكبرى. كل جمرة تُرْمى بـ ٢١ حصاة على ثلاثة أيام: ١١، ١٢، ١٣ من ذى الحجة. انظر: كتابى «فتاوى وأحكام حول مناسك الحج والعمرة».

(٤) لذلك كان عمر رضى الله عنه يقول: «والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يُقبِّلك ما قبَّلتك» أخرجه البخارى فى صحيحه (١٦١٠) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

(٥) راعه ذلك: أفزعه. وارتاع منه وله وروَّعه فتروَّع، أى: تفزع . والرَّوْع والرُّواع: الفزع. [لسان العرب ـ مادة: روع].

هل هو يفعل ذلك لأنه مؤمن ؟ أم أنه ربط سلوكه بالتجربة ؟

لقد ربط سلوكه بالتجربة ، وهو يختلف عن المؤمن الذى نفَّذ تعاليم السماء، فامتنع عن الخمر لأن الله أمر بذلك ، فلا يمكن أن نؤجل تعاليم السماء إلى أن تظهر لنا الحكمة منها.

إذن: فعلَّة المُتَشابه ؛ الإيمان به. وقد يكون للمُتَشابه حكمة ؛ لكنَّا لن نُؤجِّل الإيمان حتى نعرف الحكمة.

وأقول دائماً : يجب أن يعامل الإنسانُ إيمانَه بربه معاملته لطبيبه ، فالمريض يذهب إلى طبيبه ليعرض عليه شكواه من مرض يؤلمه ؛ ليصفَ الطبيب له الدواء ، كذلك عمل عقلك؛ عليه أن ينتهى عند عتبة إيمانك بالله.

ونجد من أقوال أهل المعرفة بالله مَنْ يقول: إن العقل كالمطيَّة[1] ، يُوصِّلك إلى باب السلطان، لكنه لايدخل معك.

إذن: فالذى يناقش فى عِلَل الأشياء هو مَنْ يرغب فى الحديث مع مُسَاوٍ له فى الحكمة، وهل يوجد مُسَاوٍ لله؟

طبعاً لا ، لذلك خُذْ افتتاحيات السور التى جاءت بالحروف المقطعة كما جاءت ، واختلافنا على معانيها يؤكد على أنها كَنْز لا ينفد من

---

(١) المطية: الدابة تُمتطى أى: يُركب ظهرها. والجمع: مَطايَا والمطا : الظهر لامتداده. وأصل المطو المد. وتمطى الرجل: تمدَّد. وكل شيء مددته فقد مطوْته. وتمطى النهار: امتد وطال. [لسان العرب ـ مادة: مطا ـ بتصرف].

العطاء، إلى أن تُحل إنْ ـ شاء الله ـ من الله[1].

ومن العجيب أن آيات القرآن كلها مبنيةٌ على الوَصْل، ففى آخر سورة هود نجد قول الحق ـ سبحانه:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)﴾ [هود]

وكان من المفترض أن نقف عليها فننطق كلمة «تعملون» ساكنة النون ، لكنها موصولة بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » ؛ لذلك جاءت النون مفتوحة.

وأيضاً ما دامت الآياتُ مبنية على الوصل، كان من المفروض أن ننطق بدء سورة يوسف «ألفٌ لامٌ راءٌ» لكن الرسول ﷺ علَّمنا أن نقرأها «ألفْ لامْ راءْ» وننطقها ساكنة.

وهذا دليل على أنها كلمة مبنية على الوقف ، ودليل على أن الله ـ سبحانه ـ حكمة فى هذا وفى ذاك.

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ كان يراجع القرآن مرة كل رمضان مع جبريل ـ عليه السلام ـ وراجعه مرتين فى رمضان الذى سبق وفاته ﷺ[2].

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١/٣٧): «مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً، وهى - ا ل م ص ر ك هـ ى ع ط س ح ق ن - يجمعها قول : **«نص حكيم قاطع له سر»**.

(٢) عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: «أسرَّ إلىَّ النبى ﷺ أن جبريل كان يُعارضنى بالقرآن كل سنة مرة، وإنه عارضنى العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلى» أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٦٢٤) وأحمد فى مسنده (٦/٢٨٢).

وهكذا وصلنا القرآن كما أنزله الحق ـ سبحانه ـ على رسوله الكريم ﷺ.

وهنا يقول الحق : ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝١﴾ [يوسف]

و «تلك» إشارة لما بَعْدَ (الٓر) ، وهى آيات الكتاب.

أى: خذوا منها أن آيات القرآن مُكوَّنة من مثل هذه الحروف ، وهذا فَهْم البعض لمعنى : ﴿الٓر .. ۝١﴾ [يوسف]

لكنه ليس كل الفهم.

مثل : صانع الثياب الذى يضع فى واجهة المحل بعضاً من الخيوط التى تم نَسْج القماش منها ؛ ليدلنا على دِقَّة الصنعة.

فكأنَّ الله ـ سبحانه ـ يُبيِّن لنا أن ﴿الٓر .. ۝١﴾ [يوسف]

أسماء لحروف هى من أسماء الحروف التى نتكلم بها ، والقرآن تكوَّنت ألفاظه من مثل تلك الحروف ، ولكن آيات القرآن معجزة ، لا يستطيع البشر ـ ولو عاونهم الجن ـ أن يأتوا بمثله[1].

إذن : فالسُّمو ليس من ناحية الخامة التى تُكوِّن الكلام ، ولكن المعجزة أن المتكلم هو الحق ـ سبحانه ـ فلابد أن يكون كلامه مُعجزاً ؛ وإن كان مُكوَّناً من نفس الحروف التى نستخدمها نحن البشر.

(١) وفى هذا يقول الحق سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ [الإسراء].

وهناك معنى آخر : فهذا رسول الله ﷺ ينطق أسماء الحروف «ألفْ لام رَاء» ، وهو ﷺ الأمي[1] بشهادة المعاصرين له بما فيهم خصومه ، رغم أن القادر على نُطْق أسماء الحروف لا بُدَّ أن يكون مُتعلِّماً ، ذلك أن الأمي ينطق مُسمَّيات الحروف ولا يعرف أسماءها[2] ، وفي هذا النطق شهادة بأن مَنْ علَّمه ذلك هو ربه الأعلى.

ويقول الحق ـ سبحانه :﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝١﴾ [يوسف]

كلمة «الكتاب» عندما تُطلق فمعناها ينصرف إلى القرآن الكريم[3].

ونجد كلمة «المبين» ، أي : الذي يُبيِّن كل شيء تحتاجه حركة الإنسانِ الخليفةِ في الأرض ، فإن بانَ لك شيء وظننتَ أن القرآن لم

---

(١) «قال أبو إسحاق: معنى الأمي: المنسوب إلى ما عليه جبلته أمه، مكتسبة، فكأنه نُسبَ إلى ما يُولد عليه، أي: على ما ولدته أمه عليه» نقله ابن منظور في [لسان العرب ـ مادة : أمم] وقال: «بعثه الله رسولاً وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب، وكانت هذه الخَلَّة إحدى آياته المعجزة لأنه ﷺ تلا عليهم كتاب الله منظوماً، تارة بعد أخرى. بالنظم الذي أنزل عليه فلم يُغيِّره ولم يُبدِّل ألفاظه» إذن : الأمي هو ما كان على الفطرة الربانية ، وتلقيه للإمدادات هو من العطاءات النورانية ، أما الكتابة فهي اكتساب ، وعلم الأمي من الخصوصيات الاصطفائية.

(٢) الفرق بين الاسم والمسمَّى بالنسبة للحروف أن حروفاً مثل: (ك)، (ت)، (ب)، ينطقها الأمي في كلامه (كتب) كمسميات للحروف، ولكنه لا يستطيع أن يقول لك : إن هذا الحرف اسمه (ك) أو هذا اسمه (تاء) أو هذا اسمه (باء)، فهو لا يستطيع أن يتهجى الكلمة، ولكنه يستطيع أن ينطقها للدلالة على فعل الكتابة، وقد أخذها من أفواه الناس هكذا. (من مفهوم الخواطر).

(٣) وردت لفظة «الكتاب» في القرآن (٢٣٠) مرة، ويقصد بها معاني كثيرة: القرآن، التوراة، الإنجيل، اللوح المحفوظ. ومن معاني الكتاب أيضاً «الرسالة» مثل رسالة سليمان عليه السلام التي أرسلها مع الهدهد إلى ملكة اليمن فقال: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾ [النمل]. ومن المعاني أيضاً صحيفة الإنسان التي تعرض عليه يوم القيامة: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء].

يتعـرَّض له ، فلابد أن تبحث عن مـادة أو آية تلفتك إلى مـا يبين لك ما غابَ عنك.

ويُروى عن الإمام محـمد عبده[1] أنه قابل أحد المسـتشرقين[2] فى باريس ؛ ووجَّه المستشرق سؤالاً إلى الإمام فقال:

مـادامتْ هناك آية فى القرآن تقـول : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ[3] مِن شَيْءٍ ..(٣٨) ﴾ [الأنعام]

فَدعْنِى أسألك: كم رغيفاً ينتجه أردبُّ القمح؟

فقال الإمام للمستشرق : انتظر. واستدعى الإمام خبازاً، وسأله: كم رغيفاً يمكن أن نصنعه من أردب القمح؟ فأجاب الخباز على السؤال.

هنا قال المستشرق: لقد طلبتُ منك إجابة من القرآن ، لا من الخباز.

---

(١) هو : محـمد عبـده بن حسن خيـر الله، من آل التركمـانى، مفتى الديار المـصرية. ولد فى شنرا (من قـرى الغربيـة بمصـر) عام ١٨٤٩م ونشـأ فى مـحلة نصر (بالبـحيـرة)، تعلم بالجامع الأحمدى بطنطا، ثم بالأزهر، أجاد الفرنسية بعد الأربعين، أصدر فى باريس جريدة «العـروة الوثقى» مع جـمـال الدين الأفـغانـى. توفى عام ١٩٠٥م بـالإسكندرية، ودفن فى القاهرة. [الأعلام للزركلى ٢٥٢/٦].

(٢) المستشرقون: جمع مستشـرق ، وهـم علماء الغرب المهتمون بعلوم الشرق وآدابه ودياناته وفلسفـاته، فهم يتـخصصـون فى هذا دراسة وبحثـاً وتنقيبـاً، ومنهم المنصفـون للإسلام، ومنهم المعادون له الذين يسخِّرون دراساتهم للطعن فى الإسلام.

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٢٥٠٥/٣) «أى: فى اللوح المـحفوظ، فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث. وقـيل: أى : فى القرآن أى: ما تركنا شيـئاً من أمر الدين إلا وقـد دللت عليه فى القـرآن، إما دلالة مـبينة مـشـروحة، وإمـا مجـملة يتلقى بيـانها من الرسـول ﷺ ، أو من الإجماع، أو من القياس الذى ثبت بنصِّ الكتاب».

فردُ الإمامُ : إذا كان القرآن قد قال:

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ..(٣٨)﴾ [الأنعام]

فالقرآن قال أيضاً:

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣)﴾ [النحل]

لقد فَطِن الإمام[1] محمد عبده إلى أن العقل البشرى أضيق من أن يسع كل المعلومات التى تتطلبها الحياة ؛ لذلك شاء الحق ـ سبحانه ـ أن يوزِّع المواهب بين البشر ؛ ليصبح كل متفوق فى مجال ما ، هو من أهل الذكر فى مجاله.

ونحن – على سبيل المثال – عندما نتعرض لمسألة ميراث؛ فنحن نلجأ إلى مَنْ تخصص فى المواريث ، ليدلنا على دقة توزيع أنصبة هذا الميراث.

وحين يؤدى المسلم من العامة فريضة الحج، فيكفيه أن يعلم أن الحج فريضة؛ ويبحث عند بَدْء الحج عمَّنْ يُعلِّمه خُطوات الحج كما أدَّاها ﷺ.

---

(١)الإمام محمد عبده من الأئمة الأعلام ، وهو مجدد لعصره ، له آثاره الفكرية ، وله مدرسته الإصلاحية ، عاصر جمال الدين الأفغانى ، وكان للإمام محمد عبده اتجاهاته فى تربية الأفراد والشعوب ، بحيث تبدأ التربية بالفرد أولاً ، ثم بالجماعة ثانياً ، وهذا التدرج التربوى انفرد به الإمام عن جمال الدين الأفغانى ، وإن كان بينهما عموم وخصوص.

وهذا سؤال لأهل الذكر ، مثلما نستدعى مهندساً ليصمم لنا بيتاً حين نشرع فى بناء بيت ، بعد أن نمتلك الإمكانات اللازمة لذلك.

وهكذا نرى أن علوم الحياة وحركتها أوسع من أن يتسع لها رأس ؛ ولذلك وزَّع الله أسباب فضله على عباده ، ليتكاملوا تكاملَ الاحتياج، لا تكامل التفضُّل ، ويصير كل منهم مُلْتحماً بالآخرين غَصْباً عنه.

وبعد ذلك يقول الحق ـ سبحانه:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾

وبالنسبة للقرآن نجد الحق ـ سبحانه ـ يقول : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ[1] الأَمِينُ ۝١٩٣ ﴾ [الشعراء]

فنسب النزول مرة لجبريل كحامل للقرآن ليبلغ به رسول الله ﷺ.

ومرة يقول : ﴿ نُزِّلَ .. ۝٢ ﴾ [محمد]

والنزول فى هذه الحالة منسوب لله وجبريل والملائكة.

أما قول الحق ـ سبحانه : ﴿ أُنزِلَ .. ۝٩١ ﴾ [البقرة]

فهو القول الذى يعنى أن القرآن قد تعدى كونه مَكْنوناً فى اللوح المحفوظ ليباشر مهمته فى الوجود ببعث رسول الله ﷺ .

(١) «الروح الأمين: هو جبريل عليه السلام. قاله غير واحد من السلف: ابن عباس ومحمد بن كعب وقتادة وعطية العوفي والسدى والضحاك والزهرى وابن جريج، وهذا مما لا نزاع فيه» قاله ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٤٧).

هذا هو معنى الإنزال للقرآن جملةً واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا[١]، ثم نزل من بعد ذلك نجوماً[٢] متفرقة ؛ ليعالج كل المسائل التى تعرِض لها المسلمون.

وهكذا يؤول الأمر إلى أن القرآن نزل أو نزل به الروح الأمين.

والحق ـ سبحانه ـ يقول :

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

أى: أن الحق ـ سبحانه ـ أنزله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم أنزله مفرقاً ليعالج الأحداث ويباشر مهمته في الوجود الواقعى[٣].

---

(١) ذكر أبو شامة فى المرشد الوجيز أن «السر فى إنزاله جملة إلى السماء، تفخيم أمره وأمر من نزل عليه، وذلك بإعلام سكان السماوات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الامم، قد قرّبناه إليهم لننزله عليهم، ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم مُنجماً بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة، كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله باين بينه وبينها. فجعل له الأمرين: إنزاله جملة، ثم إنزاله مُفرّقاً، تشريفاً للمُنزل عليه. نقله السيوطى فى [الإتقان فى علوم القرآن ١/١١٩)].

(٢) نجوماً: مُنجّماً، اى: ان القرآن أُنزل مفرقاً نجماً بعد نجم، آية بعد آية ، على حسب الأحداث والأحوال، ولذلك كان علم «أسبابِ النزول» وذلك أدعى إلى قبوله، بخلاف ما لو نزل جملة واحدة، فإنه كان ينفر من قبوله كثير من الناس، لكثرة ما فيه من الفرائض والمناهى. انظر [لسان العرب مادة: نجم]، [الإتقان للسيوطى ١/١٢٣].

(٣) من امثلة هذا قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ .. (٥٣) ﴾ [الاحزاب]

قال الواحدى عن أسباب نزول هذه الآية: « لما بنى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش أولم عليها بتمر وسويق وذبح شاة. قال أنس: وبعثت إليه أمى أم سليم بحيس فى تور من حجارة، فأمرنى النبى ﷺ أن أدعو أصحابه إلى الطعام، فجعل القوم يجيئون فيأكلون فيخرجون ، ثم يجيء القوم ويأكلون ويخرجون. فقلت: يا نبى الله قد دعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه. فقال: ارفعوا طعامكم. فرفعوا وخرج القوم وبقى ثلاثة أنفار يتحدثون فى البيت، فأطالوا المكث، فتأذى منهم رسول الله ﷺ وكان شديد الحياء، فنزلت هذه الآية» [أسباب النزول: ص٢٠٥].

وفى هذه الآية يقول ـ سبحانه :

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا .. ﴿٢﴾﴾ [يوسف]

وفى الآية السابقة قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ..﴿١﴾﴾ [يوسف]

فمرَّة يَصِفه بأنه قرآن بمعنى المقروء ، ومرَّة يَصِفه بأنه كتاب ؛ لأنه مسطور ، وهذه من معجزات التسمية.

ونحن نعلم أن القرآن حين جُمِع[1] ليكتب ؛ كان كاتب القرآن لا يكتب إلا ما يجده مكتوباً ، ويشهد عليه اثنان من الحافظين.

ونحن نعلم أن الصدور قد تختلف بالأهواء ، أما السطور فمُثْبتة لا لَبْسَ فيها.

وهو قرآن عربى؛ لأن الرسول ﷺ سيجاهر بالدعوة فى أمة عربية، وكان لابد من وجود معجزة تدل على صدق بلاغه عن الله، وأن تكون

(١) قال الحاكم فى المستدرك : جمع القرآن ثلاث مرات:

إحداها : بحضرة النبى ﷺ .

الثانية : بحضرة أبى بكر رضى الله عنه.

الثالثة : فى زمن عثمان رضى الله عنه.

والمقصود هنا هو الجمع الثانى للقرآن والذى قام به زيد بن ثابت بأمر من أبى بكر رضى الله عنه: إنك شاب عاقل، لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه . قال زيد : فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللخاف وصدور الرجال. وكان زيد لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان. قال السيوطى: «وهذا يدل على أن زيداً كان لا يكتفى بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به مَنْ تلقَّاه سماعاً، مع كون زيد كان يحفظ، فكان يفعل ذلك مبالغة فى الاحتياط. [انظر: الإتقان فى علوم القرآن ١/ ١٦٤ ـ ١٦٧] باختصار.

ممَّا نبغ[١] فيه العرب ؛ لأن المعجزة مشروطة بالتحدى ، ولا يمكن أن يتحداهم فى أمر لا ريادة لهم فيه ولا لهم به صلة ؛ حتى لا يقولن أحد: نحن لم نتعلم هذا ؛ ولو تعلمناه لجئنا بأفضل منه.

وكان العرب أهل بيان وأدب ونبوغ فى الفصاحة والشعر ، وكانوا يجتمعون فى الأسواق[٢]، وتتفاخر كل قبيلة بشعرائها وخطبائها المُفوَّهين[٣] ، وكانت المباريات الأدائية تُقَام ، وكانت التحديات تجرى فى هذا المجال ، ويُنصَب لها الحكام.

أى : أن الدُّرْبَة على اللغة كانت صناعة متواترة ومتواردة ، محكوم عليها من الناس فى الأسواق ، فَهُم أمة بيان[٤] وبلاغة وفصاحة.

لذلك شاء الحق ـ سبحانه ـ أن يكون القرآن معجزة من جنس ما نبغ فيه العرب ، وهم أول قوم نزل فيهم القرآن ، وحين يؤمن

---

(١) نبغ الشيء : ظهر. نبغ منهم شاعر: خرج. والنابغة: الشاعر المعروف، سُمِّي بذلك لظهوره. [لسان العرب ـ مادة: نبغ].

(٢) كانت للعرب أسواق يجتمعون فيها، مثل: عكاظ، وذى المجاز، فكانت قبائل العرب تجتمع بها كل سنة ويتفاخرون بها، يحضرها الشعراء فيتناشدون ما أحدثوا من الشعر.

(٣) المفوَّه : حسن الكلام بليغ المنطق، فهو قادر على الكلام الجيد فى بساطة وسلاسة. راجع بعض هذا فى [لسان العرب ـ مادة: فوه].

(٤) البيان: إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو من الفهم وذكاء القلب مع اللَّسَن، وأصله الكشف والظهور. [اللسان ـ مادة: بين]. والبيان: الكشف والإيضاح والكلام البليغ. قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ..(١٣٨)﴾ [آل عمران] أي: كشف وإيضاح أو هذا كلام بليغ. وقوله: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن] أى: النطق المعبِّر عمَّا فى النفس من معانٍ وأفكار. [القاموس القويم ـ مادة: بين].

هؤلاء لن يكون التحدى بفصاحة الألفاظ ونسق الكلام ، بل بالمبادىء التى تطغى على مبادىء الفرس والروم.

وهى مبادىء قد نزلت فى أمة مبتدّية[1] ، ليس لها قانون يجمعها، ولا وطن يضمهم يكون الولاء له ، بل كل قبيلة لها قانون ، وكلهم بَدْو يرحلون من مكان إلى مكان.

وحين نزل فيهم القرآن علِم أهل فارس والروم أن تلك الأمة المُتبدِّية قد امتلكتْ ما يبنى حضارة ليس لها مثيل من قَبْل ، رغم أن النبى أُمِيٌّ وأن الأمة التى نزل فيها القرآن كانت أمية.

وفارس والروم يعلمون أن الرسول الذى نزل فى تلك الأمة تحدَّاهم بما نبغُوا فيه، وما استطاع واحد منهم أن يقوم أمام التحدى ، ومن هنا شعروا أنهم أمام تحد حضارى من نوع آخر لم يعرفوه.

ويشاء الحق ـ سبحانه ـ أن ينزل القرآن عربياً ؛ لأن الحق لم يكن ليرسل رسولاً إلا بلسان قومه ، فهو القائل:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ[2] قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .. (٤)﴾ [إبراهيم]

---

(١) متبدية: نسبة إلى البادية. يقال: تبدّى الرجل: أقام بالبادية. والبادية: خلاف الحضَر. وسُمِّيت بادية لبروزها وظهورها عن أماكن تجمع الناس فى الحضر حول الماء وغيره. بتصرف من [لسان العرب ـ مادة: بدو].

(٢) اللسان: إحدى حواس الذوق والنطق. قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩)﴾ [البلد] فالله يمتنُّ على الإنسان بنعمة البصر والنطق. واللسان: اللغة والكلام. قال تعالى: ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا .. (٣٤)﴾ [القصص] أى: أقدر منى على الكلام الفصيح. وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ..(٢٢)﴾ [الروم] ألسنتكم، أى: لغاتكم ولهجاتكم [القاموس القويم ـ مادة لسن].

وأرسلَ محمد ﷺ بالقرآن ، الذى تميَّز عن سائر كتب الرسل الذين سبقوه ؛ بأنه كتاب ومعجزة فى آنٍ واحد ، بينما كانت معجزات الرسل السابقين عليه ﷺ مُنْفصلةً عن كُتب الأحكام التى أُنزلتْ إليهم.

ويظلُّ القرآن معجزة تحمل منهجاً إلى أنْ تقومَ الساعة ، ومادام قد آمنَ به الأوائل وانساحوا[1] فى العالم، فتحقق بذلك ما وعد به الله أن يكون هذا الكتابُ شاملاً ، يجذب كل مَنْ لم يؤمن به إلى الانبهار بما فيه من أحكام.

ولذلك حين يبحثون عن أسباب انتشار الإسلام فى تلك المدة الوجيزة، يجدون أن الإسلام قد انتشر لا بقوة مَنْ آمنوا به ؛ بل بقوة مَنْ انجذبوا إليه مَشْدُوهين[2] بما فيه من نُظُمٍ تُخلِّصهم من متاعبهم.

ففى القرآن قوانين تُسعد الإنسانَ حقاً ، وفيه من الاستنباءات بما سوف يحدث فى الكون ؛ ما يجعل المؤمنين به يذكرون بالخشوع أن الكتاب الذى أنزله الله على رسولهم لم يفرط فى شىء.

وإذا قال قائل من المستشرقين: كيف تقولون : إن القرآن قد نزل

---

(١) السياحة: الذهاب فى الأرض لأغراض مختلفة منها العبادة والدعوة والتجارة. وأصله من سَيْح الماء الجارى على وجه الأرض. [لسان العرب ـ مادة: سيح] بتصرف.

(٢) شُدِه الرجل شَدَهاً: تحيّر. والدُّهْش أيضاً: التحيُّر. دهش: تحيَّر، أو ذهب عقله من ذَهَل أو وَلَه فهو مدهوش، وأدهشه غيره. [اللسان ـ مادتا: شده، دهش].

بلسان عربى مبين ؛ رغم وجود ألفاظ أجنبية مثل كلمة « آمين » التى تُؤمِّنون[١] بها على دعاء الإمام ؛ كما توجد ألفاظ رومية[٢]، وأخرى فارسية[٣]؟

وهؤلاء المستشرقون لم يلتفتوا إلى أن العربى استقبل ألفاظاً مختلفة من أمم متعددة نتيجة اختلاطه بتلك الأمم ، ثم دارتْ هذه الألفاظ على لسانه ، وصارت تلك الألفاظ عربية ، ونحن فى عصورنا الحديثة نقوم بتعريب الألفاظ ، وندخل فى لغتنا أىَّ لفظ نستعمله

(١) التأمين: قول آمين. وآمين : كلمة تُقال فى إثر الدعاء، قال الفارسى: هى جملة مركبة من فعل واسم، معناه: اللهم استجب لى. [لسان العرب ـ مادة: أمن]. وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه» أخرجه الإمام مالك فى موطئه (٨٧/١) وأحمد فى مسنده (٢٢٨/٢ ، ٣٢١) والبخارى فى صحيحه (٧٨٠) وكذا مسلم (٤١٠).

(٢) من أمثلة الألفاظ الرومية الموجودة فى القرآن الكريم :

- (الرقيم) فى قوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩)﴾ [الكهف]. قال السيوطى فى الإتقان (١١٢/٢) أنه قد قيل فيها ثلاثة أقوال: اللوح، الكتاب، الدواة.
- (الصراط) : حكى النقاش وابن الجوزى أنه الطريق بلغة الروم.
- (طفقا) فى قوله تعالى : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ .. (٢٢)﴾ [الأعراف] معناه: قصدا بالرومية.

(٣) من أمثلة الألفاظ الفارسية فى القرآن الكريم :

- (أباريق) : حكى الثعالبى فى فقه اللغة أنها فارسية. وقال الجواليقى: الإبريق فارسىٌّ مُعرَّب، ومعناه: طريق الماء، أو صب الماء على هينة.
- (دينار) : فى قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا .. (٧٥)﴾ [آل عمران] . ذكر الجواليقى وغيره أنه فارسى.
- (سجيل): عن مجاهد قال: سجيل بالفارسية، أولها حجارة، وآخرها طين.

ويدور على ألسنتنا ، ما دُمْنا نفهم المقصود به[1].

ويُذيِّل الحق ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله :

﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [يوسف]

ليستنهض همة العقل ، ليفكر فى الأمر ، والمُنْصف بالحق يُهمه أن يستقبل الناس ما يعرضه عليهم بالعقل ، عكس المدلس[2] الذى يهمه أن يستر العقل جانباً ؛ لينفُذَ من وراء العقل.

وفى حياتنا اليومية حين ينبهك التاجر لسلعة ما ، ويستعرض معك متَانتها ومحاسنها ؛ فهو يفعل ذلك كدليل على أنه واثق من جودة بضاعته.

أما لو كانت الصَّنْعة غير جيدة ، فهو لن يدعوك للتفكير بعقلك ؛ لأنك حين تتدبر بعقلكَ الأمر تكتشف المُدلس وغير المُدلس ؛ لذلك فهو يدلس عليك، ويُعمِّى عليك، ولا يدع لك فرصة للتفكير.

---

(١) ذكر السيوطى فى كتابه الإتقان (٢/١٠٥ ـ ١٠٨) اختلاف العلماء فى عربية هذه الألفاظ وفى أعجميتها وذكر أدلة كل من الفريقين ثم قال: «وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: «الصواب عندى مذهب فيه تصديق القولين جميعاً، وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء، لكنها وقعت للعرب، فعرّبتها بألسنتها وحوّلتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها، فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال إنها عربية فهو صادق، ومن قال أعجمية فصادق» ومال إلى هذا القول الجواليقى وابن الجوزى وآخرون».

(٢) التدليس: إخفاء العيب. والمدالسة: المخادعة. والتدليس فى البيع: كتمان عيب السلعة عن المشترى. واندلس الشيء: إذا خفي [لسان العرب ـ مادة: دلس].